الرسالة

(٢ كور ٤: ٦-١٥)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ الذي أمرَ أن يُشرقَ من ظلمةٍ نورٌ هو الذي أشرقَ في قلوبنا لإنارةِ معرفةِ مجدِ اللهِ في وجهِ يسوعَ المسيح* ولنا هذا الكنزُ في آنيةٍ خَزَفيَّة ليكونَ فضلُ القوَّةِ لله لأمنّا* مُتضايقينَ في كُلِّ شيءٍ ولكن غيرَ منحصرين ومُتحيِّرينَ ولكن غيرَ يائسين* ومُضطَهدين ولكن غيرَ مخذولين. ومطروحين ولكن غيرَ هالِكين* حامِلين في الجَسَدِ كُلَّ حين إماتَةَ الربِّ يسوعَ لتظهَرَ حياةُ يسوعَ أيضًا في أجسادنا* لأنَّا نحنُ الأحياءَ نُسلَّمُ دائمًا إلى الموتِ من أجلِ يسوعَ لتظهَرَ حياةُ المسيحِ أيضًا في أجسادِنا المائِتة* فالموتُ إذَنْ يُجرَى فينا والحياةُ فيكم* فإذْ فينا روحُ الإيمانِ بِعَينِهِ على حسَبِ ما كُتِبَ إنّي آمنتُ ولذلكَ تكلَّمتُ فنحنُ أيضًا نؤمِنُ ولذلِكَ نتكلَّم* عالمينَ أنَّ الذي أقامَ الربَّ يسوعَ سيُقيمُنا نحنُ أيضًا بيسوعَ فننتصِبُ مَعَكم* لأنَّ كلَّ شيءٍ هو من أجلِكم لكي

الإستقسامات (٢)

«وأمَّا الآن إذْ أُعتِقْتُم مِنَ الخطيئةِ وصِرتُمْ عبيدًا لله فلكم ثَمَرُكُم للقداسةِ والنهايةِ حياةٌ أبديَّةٌ، لأنَّ أُجْرَةَ الخطيئةِ هي موتٌ، وأمَا هِبةُ اللهِ فهي حياةٌ أبديَّةٌ بالمسيحِ يسوعَ ربِّنا» (رو ٦: ٢٢ و٢٣).

هدف المعموديَّة هو استعادة الحياة الحقيقيَّة، تلك الحياة التي خسرها الإنسان بالخطيئة. هدفها أن تستعيد الإنسان عضوًا في رعية ميراث الله بعد أن خرج من الحظيرة وصار يُولد في جوٍّ يسيطر عليه الشرير ويجنح نحو الشر. الإستقسامات في المعموديَّة هي بداية المعركة التي تشكل أول بُعد من الحياة المسيحيَّة، المعركة الدائمة مع الشرير الذي يسعى دومًا إلى إبقاء الإنسان تحت سيطرته.

يتساءل البعض عن جدوى الإستقسامات على الأطفال في بدء خدمة سر المعموديَّة، وهل من شياطين لنطردها من أطفال بريئين. لفهم طبيعة الإستقسامات في المعموديَّة يجب فهم طبيعة آدم الفاسدة بعد سقوطه من الفردوس.

لقد خلق الله الإنسان ومنحه مواهب روحيَّة لخيره وكماله، إضافة إلى نعمة الله. خلقه على صورته، أي وضع فيه إمكانية الوصول، بإرادته الحرَّة، إلى مكان أسمى، أي إلى شبه الله. ولو ان الإنسان استثمر النِعَمْ التي أعطاه إياها الله لكان وصل إلى القداسة، وصار على شبه الله، بدل أن ينحدر إلى الموت. اغوى الشيطان الإنسان، فسقط هذا بإرادته الحرَّة وسقطت معه الخليقة كلها. هكذا فسدت طبيعة الإنسان وصار الموت جزءًا منها: «لأن أجرة الخطيئة هي موتٌ» (رو٦: ٢٣). وهكذا «بإنسانٍ واحدٍ دَخَلَتِ الخطيئةُ إلى العالمِ وبالخطيئةِ الموتُ، وهكذا اجتازَ الموتُ إلى جميعِ الناسِ إذ أخطأَ الجميعُ» (رو٥:١٢).

العدد ٢٠٠٢/٣

الأحد ٢٠ كانون الثاني

تذكار أبينا البار المتوشح بالله أفثيميوس

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر الحادي عشر

بعد السقوط صار الإنسان يولد في جو فاسد تحكمه الخطيئة والشر، وصارت خبرة الإنسان في هذه الحياة هي خبرة للشر. وكما يقول الأب ألكسندر شميمان انها «خبرة مستمرة لسقوط ما، لشيءٍ ثمين وكامل انحرف عن طبيعته وخانها، خبرة للصفة غير الطبيعية لتلك السقطة، التي رغم عدم طبيعتها، صارت جزءًا طبيعيًّا ومتممًا لطبيعتنا... وإذا كانت تلك الخبرة الروحيَّة تعلِّمنا شيئًا، فهو ان الشر لا

«يُفسَّر» بل يواجَه ويصارَع، وهذا ما فعله الله بالشر. فهو لم يفسره بل أرسل ابنه الوحيد لتصلبه قوات الشر مجتمعةً، فيقضي عليها بالمحبة والإيمان. وهذا هو الطريق الذي يجب أن نسلكه نحن أيضًا، لأنّ لا مفر لنا من ذلك. ففي اللحظة التي نقرِّر فيها أن نتبع المسيح سنلتقي فورًا بالشيطان.ولذا فإن طقس المعموديَّة، التي هي فعل تحرُّر وانتصار، يبدأ بالإستقسامات. لأننا في طريقنا إلى جرن المعموديَّة، نصطدم حتمًا بالشخص المظلم القوي الذي يسد تلك الطريق في وجهنا. وعلينا أن نزيله ونطرده من أمامنا إذا أردنا التقدُّم» (من كتاب بالماء والروح).

لقد سرقنا الشرير من الله قديمًا، ولكن الله بمحبَّته لنا أرسل ابنه الوحيد ليفتدينا، وأعطانا إمكانيَّة العودة إليه عبر الأسرار، والمعمودية أولها. عندما تلمس يد الكاهن رأس المستعد للمعموديَّة، وهو ابنٌ لله، وترسم عليه علامة الصليب، يكون الشيطان موجودًا في اللحظة نفسها ليدافع عمَّن سرقه من الله مدَّعيًا ملكيته. قد لا نراه نحن ولكن الكنيسة تعرف أنه موجود. طبعًا حقق الله انتصارًا بواسطة الصليب، لكن الشيطان لم يستسلم بعد. الكتاب المقدَّس يخبرنا ان الشيطان أُصيب بجرح مميت، و«انه عاجز عن القيام بأي شيء ضد المسيح، ولكن بإمكانه أن يفعل الكثير ضدنا. الإستقسامات التي تُقام من أجل طرد الشياطين هي بدء هذا الصراع (ضد الشيطان) الذي يشكِّل أول بُعد أساسي من أبعاد الحياة المسيحيَّة» (الأب شميمان).

تُحصِّننا الإستقسامات ضد هجمات الشرير المستقبليَّة، وإذا ما كنا دومًا مع المسيح وحافظنا على وديعة نعمة المعموديَّة فلن يقوى علينا شر أو شرير. يتلو الكاهن الإستقسامات على الطفل المُزمع أن يُعمَّد ليس لأنه «مسكون» من الشيطان، بل ليُبعد الشيطان الذي سوف يحاول أن يُسقطه في الخطيئة عندما يكبر ويُبعده عن الله. يتلو الكاهن هذه الصلوات ليبني درعًا يقي الطفل من الهجمات الشرسة. لكن الدرع لا ينفع إذا لم يقبله الإنسان بإرادته. لذا فإن الخطوة التالية في خدمة المعموديَّة أن يتَّجه الطفل مع عرّابيه إلى الغرب حيث يواجهون الشرير في مكان سكناه ويعلنون رفضهم له: «نعم أرفض الشيطان وكل أعماله وجميع ملائكته وكل عبادته وكل أباطيله». ثم يتَّجهون نحو الشرق ليوافقوا المسيح ويسجدوا «للآب والإبن والروح القدس ثالوثًا متساويًا في الجوهر وغير منقسم».

القديس مكسيموس المعترف

يعتبر كتاب «في مقاطع صعبة لدى القدّيسين ديونيسيوس وغريغوريوس» أهم الأعمال الأدبية التي تركها لنا القديس مكسيموس المعترف (٥٨٠–٦٦٢) والذي تعيّد له الكنيسة المقدّسة في الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني. يشرح القديس المعترف في عمله هذا مقاطع صعبة مأخوذة كلّها من كتابات القديس غريغوريوس اللاهوتي، وذلك باستثناء مقطع واحد يعود إلى كاتب كنسيّ من أوائل القرن السادس يُعرف باسم ديونيسيوس المنحول.والكتاب مؤلّف من جزءين، يفوق الثاني منهما الأول حجمًا بأضعافٍ كثيرة. والمرجّح أنّ القديس المعترف خط هذا الكتاب خلال وجوده في قرطاجة نحو العام ٦٣٠. ويتّضح من مقدّمة هذا الجزء أنّ القديس مكسيموس كان قد تباحث في بعض المقاطع العسرة الفهم لدى القديس غريغوريوس مع تتكاثرَ النعمةُ بشُكرِ الأكثرينَ فتزدادَ لمجدِ الله.

الإنجيل

(لوقا ١٧: ١٢–١٩)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ داخلٌ إلى قريةٍ استقبلهُ عَشَرَةُ رجالٍ بُرص ووقفوا من بعيدٍ* ورفعوا أصواتَهم قائلين يا يسوعُ المعلِّمُ ارحمنا* فلمَّا رآهم قال لهم امْضوا وأَروا الكهنةَ أنفسَكم. وفيما هم منطلِقون طَهُروا* وإنَّ واحدًا منهم لمَّا رأى أنَّهُ قد بَرِئَ رَجَعَ يُمجِّدُ اللهَ بصوتٍ عظيم* وخرَّ على وجههِ عند قَدَمَيْهِ شاكرًا لهُ وكان سامريًّا* فأجابَ يسوعُ وقالَ أَليسَ العَشْرَةُ قد طهُروا فأين التِسْعَة* أَلَم يوجَدْ مَن يرجِعُ لِيمجِّدَ الله إلاَّ هذا الأجنبيَّ* وقال لهُ قُمْ وامضِ. إيمانُك قد خلَّصَكَ.

تأمل

المسيح هو مصدر الخيرات كلها. إذا قرأت العبارة الإنجيلية الآتية: وكلنا أخذنا من امتلائه ونعمة عوض نعمة (يو١: ١٦) فإنك تسأل عن معنى هذه الكلمات إن يوحنا الإنجيلي يقول: إن عند المسيح هِبات غير مستعارة بل هو الينبوع نفسه وأساس كل الخيرات والنِعَم، هو الحياة الحقيقية

والنور الحر المستقل والحقيقة الصادقة. هو لا يحتكر في ذاته الخيرات الغزيرة بل تتدفق منه على الجميع، ومع ذلك فهو لا يزال ملآن منها دائمًا. إنه لا ينقص البتة بسخائه على الجميع. إنه الواهب النعمة المستمر دائمًا على حقيقته. قد ينقص البحر قليلاً إن أخذت نقطة واحدة منه، لكن هذا النقص لا يلاحَظ مطلقًا. أما عن ينبوع المسيح فلا يجوز أن يقال هكذا لأنه دائم الفيضان وعديم النقصان.

ليس المؤمن من يؤمن بكل شيء، بل المؤمن من يؤمن بالله فقط، وحينئذ يدعى مؤمنًا. اترك البحث، واعتنق الإيمان. الإيمان نور منير للجميع. الإيمان يؤهل الإنسان، ويجعله مستحقًا للروح القدس. فحيث الإيمان هناك القوة. وحيث عدم الإيمان هناك الضعف. الإيمان أساس النِعَم. الإيمان منهل الخيرات فأقبل على هذا السلاح الخلاصي!

... يجب على كل مؤمن أن يكون مصباحًا منيرًا في هذا العالم. إن كنت لا تنير نفسك ولا تتجنب الفساد، فلا شيء يجبرنا على معرفتك. ألهذا غُطست في الماء المقدس؟ إن الفساد لا بد أن يوصلك إلى القصاص. فكثرة المجد

أسقف يدعى يوحنا، يرجّح أن يكون رئيس أساقفة مدينة كيزيكوس في آسية الصغرى. ثم عاد الأسقف يوحنا وطلب منه تدوين الشروحات التي أتى بها خلال الأحاديث التي جرت بينهما. أمّا القسم الأول،والأرجح أن يكون مكسيموس قد عمد إلى كتابته بعد عام ٦٣٣، فهو موجّه إلى «عبد الله، الأب الروحيّ والمعلّم توما»، ولعلّه أحد الرهبان أصدقاء مكسيموس.

يشكّل القسم الثاني والأكبر من الكتاب عرضًا لاهوتيًا مفصّلاً لكيفيّة سير الإنسان والخليقة نحو الله. ويتّخذ هذا العرض، في غالبية الأحيان، شكل دحض للنظرية الأوريجنّسية في الخلق والخلاص. ماذا نعني بالأوريجنّسية؟ هي نظرية قامت على تعليم اللاهوتيّ الإسكندري أوريجنّس، الذي كان في القرن الثالث الوجه الفكريّ الأبرز في العالم المسيحي. وقد طوّر أوريجنّس، تحت تأثير الفلسفة الأفلاطونية، نظريةً تقول انّ الأنفس كانت متّحدة بالله قبل خلق العالم، ثم ابتعدت عنه فعوقبت بأن جُعلت في أجساد، وهكذا أتت المادة إلى الوجود ونشأ العالم المخلوق. ويعتبر أوريجنّس أنّ وظيفة الأجساد تكمن في جعل النفوس تشتاق إلى حالتها الأولى، لمّا كانت بعد متّحدة بالله. ولقد ذهب أوريجنّس إلى حدّ الاعتبار أنّ النفوس، بسبب حريّتها المطلقة، قادرة حتّى بعد عودتها إلى الله على أن تنفصل عنه ثانيةً. من الواضح أنّ هذا التعليم مغاير للإعلان الإلهي كما يعبِّر عنه الكتاب المقدّس وتراث الكنيسة. والجدير ذكره أنّ هدف أوريجنّس كان الإتيان بصيغة توفّق بين المسيحية والفلسفة في زمنه، والتي كانت تشكّل الخلفية الأساسية لثقافة ذلك العصر. وقد كان هذا المعلّم الإسكندري شديد التأثير على

الأجيال اللاحقة،لا بسبب غزارة علمه فحسب، بل بسبب ما عُرف عنه أيضًا من تقوى وغيرة. هذا التأثير العظيم يدلّ عليه تكريس القديس مكسيموس الجزء الثاني من كتابه «في مقاطع صعبة» للردّ على الشطط الأوريجنّسي، بعد مضيّ أكثر من ثلاث مئة سنةٍ على موت أوريجنّس. والواضح من الكتاب أنّ بعض الذين ساروا في ركاب الأوريجنّسية كانوا يفسّرون مقاطع من القديس غريغوريوس اللاهوتي في شكل خاطئ. خطورة التعليم الأوريجنّسيّ لم تكن تكمن في الفصل بين النفس والجسد فحسب – انطلاقًا من القول بأسبقية وجود الأنفس – بل في النظرة المتشائمة لدور كلٍّ من الجسد وحركة الكائنات أيضًا. فالجسد يُنظر إليه بوصفه عقابًا للنفوس، والحركة تعتبر سلبيةً بطبيعتها، لأنها بدأت بانفصال النفوس عن الله، وابتعادها عنه.

أولاً، يؤكّد القديس مكسيموس في ردّه الطابع الإيجابي لحركة المخلوقات. فالله خلق كلّ شيء متّجهًا إليه. هذا ينطبق أيضًا على المخلوقات العقلية، وفي مقدّمتها الإنسان، التي تتمتّع بالحريّة في توجيه حركتها نحو الله، بحسب الطبيعة، أو في الابتعاد عنه، خلافًا للطبيعة. إبتعاد الكائنات العقليّة الطوعي عن الله يرجع، إذًا، إلى قرارها الحرّ، لا إلى كون الحركة في حدّ ذاتها سيّئة، كما ادّعى أوريجنّس. وإذا ما وجّهت الكائنات العقليّة سيرها نحو الله، الظاهر في الخليقة وفي الوصايا، فهي قادرة، في نهاية المطاف، على الاتّحاد به. هنا، يؤكّد القديس مكسيموس، بطريقة أوضح، إيجابية دور الخليقة، التي كان أتباع أوريجنّس يعتبرونها ناشئة من سقوط النفوس. فالله يظهر في الخليقة، لكونها تشير إلى حكمته

وعنايته وسهره عليها.وتاليًا، هي قادرة على أن تقود الإنسان إلى رؤية الله، شرط ألاّ يتوقف عند الموجودات في ذاتها، بل أن يعبر بواسطتها إلى الكلمة الإلهي الذي أنشأها. والجدير ذكره أنّ القديس المعترف يولي الخليقة، أو ما يسمّيه الناموس الطبيعي، القيمة ذاتها التي يوليها للناموس المكتوب،أي الوصايا. فهما طريقان مختلفان يقودان إلى الغاية عينها، أي الله، الذي أبرز الخليقة من العدم، وأعطى بواسطة أنبيائه ناموس الوصايا. ولا يكتفي مكسيموس بالتشديد، كسابقيه من آباء الكنيسة، على اشتراك الجسد مع النفس في الاتحاد بالله، بل ينسب إليه، فضلاً عن ذلك، دورًا غايةً في الإيجابية، بقوله إنّ الجسد يعكس، لدى الذين تطهّروا من الخطيئة، فضائل النفس إلى الخارج، بحيث يتمكّن الآخرون من الإقتداء بهم. كذلك، يولي مكسيموس العقل البشري أهميّة كبرى، جاعلاً منه «مترجمًا» لحالة المعاينة الإلهية، أي معبّرًا، بواسطة الكلام، عمّا يختبره القديسون لدى اتّحادهم بالله. ويشدّد مكسيموس، من جهةٍ أخرى، على تلاصق النفس والجسد، داحضًا نظرية الوجود السابق للنفوس. فالواحد منهما يحمل خاتم الآخر، حتى بعد الموت وانحلال الجسد. أما نظرية الوجود السابق للأنفس، ودخولها في الأجساد لدى خلق العالم المرئي، فتعارض، في رأي القديس، تعليم الكنيسة الخريستولوجيّ الذي يقول إنّ الكلمة الإلهي منذ لحظة الحبل به إنسان كامل ذو نفسٍ بشريّة غير منقوصة.

كيف يردّ القديس مكسيموس، أخيرًا، على الإدّعاء الأوريجنّسي بإمكانية سقوط الأجساد ثانيةً حتى بعد عودتها إلى الله؟ رأى أتباع أوريجنّس أنّ سبب سقوط الأنفس أولاً كان حالة الشبع والسكينة التي عاشتها عندما كانت بعد متّحدة بالله، ممّا دفعها إلى التحرّك بغية اختبار حالة أخرى. وهم لم يستبعدوا إمكان أن تعيد الأنفس الكرّة، بعد كل مرة تعود فيها إلى الله، وهكذا دواليك. ولكن القديس مكسيموس يشير إلى أنّ حالة السكينة في الله التي تبلغها المخلوقات لدى الاتّحاد به، لا تعني أنّها ستشبع، لأنّ الله بطبيعته غير متناه ولا يشبه البتة ما تستهلكه المخلوقات عادةً كالطعام والشراب، فتشبع ثم تجوع من جديد. الكائنات العقلية،إذًا، لا «تستهلك» الله،بل تتحرّك فيه،بعد وصولها إليه، منتقلةً من مجد إلى مجد،غير مختبرةٍ لا الشبع ولا الملل.هذه السكينة المتحرّكة تضمن بقاء المخلوقات العقلية على لصوقها بمن كانت تصبو إليه، وعدم سقوطها من جديد، لكونه وحده قادرًا على إشباعٍ شوقها الذي دفعها إلى التحرّك في اتجاهه.

أمّا الجزء الأول من كتاب «في مقاطع صعبة» فيتضمّن، كما ذكرنا أعلاه، فضلاً عن الشروح التي يقدّمها القديس مكسيموس لنصوص من القديس غريغوريوس اللاهوتي، تعليقًا وحيدًا على أحد نصوص ديونيسيوس المنحول. في هذا الجزء، يتعرّض مكسيموس لبدعة المشيئة الواحدة، التي راح يشتدّ ساعدها بعد العام ٦٣٣، مدافعًا عن كمال المشيئة البشرية في الكلمة المتجسّد، ومشدّدًا على توافقها مع المشيئة الإلهيّة.

إنّ كتاب «في مقاطع صعبة لدى القدّيسين ديونيسيوس وغريغوريوس» للقديس مكسيموس المعترف يشكّل بحقّ خلاصة فكر هذا الأب العظيم، إن في تعليمه حول شخص يسوع، أو حول مسيرة الإنسان والكون نحو الله.

تزيد قصاص الذين لا يحسنون السلوك. لا يجوز للمؤمن أن يتلألأ بما أعطيه من الله فقط، بل بكل ما يخصه أيضًا، بكل ما يرى ويصدر عنه، إن كان بأعماله أو بنظره أو بهيئته أو بصوته.

قلت تجنب المثابرة على الفساد، لا لأجل المظاهر الخارجية بل لنفع من ينظر إلينا. أما الآن فإني أجهد نفسي لمعرفتك، ولكنني أراك عكس ما أريد من كل الوجوه. فإن أردت أن أستنتج عنك شيئًا من الحالة التي أنت فيها أراك في ميادين سباق الخيل. وفي الصيام، أراك تصرف أيامك في المحرمات مع المنافقين في الأسواق، ومع السالكين طرق المعاصي. أريد أن أستنتج شيئًا من هيئة وجهك فأراك دائمًا ضاحكًا مشتّت الفكر أشبه بالعاهرة. وإن حوّلت نظري إلى لباسك فإني لا أراك أفضل من الممثل. وإن أردت أن أستنتج شيئًا عنك من رفاقي فإني أشاهدك تقود وراءك الكسالى والممالقين، وإن أردت أن أفهم شيئًا من كلامك أراك لا تنطق بشيء معقول، عملي،نافع في هذه الحياة. وإن أردت معرفتك من شتى الجوانب فإنني أجد شيئًا يستوجب الحكم عليك.

القديس يوحنا الذهبي الفم